سوريا والعدالة الدولية بعد الأسد

بقلم: **سيمون آدامز**، الرئيس والمدير التنفيذي
تاريخ النشر: **7 كانون الثاني 2025**

بعد عقد من الحرب وحصيلة قتلى بلغت 500 ألف قتيل، تم الإطاحة أخيرًا بسلالة الأسد الفاسدة والملطخة يديها بالدماء، إلى غير رجعة! حسبُه أن يقضي بقية حياته في زنزانة في دمشق أو في لاهاي، وليس في شقة فارهة في موسكو. فقد باتت أمنيتي للعام الجديد هي أن يواجه الدكتاتور السابق لسوريا، بشار الأسد، العدالة التي تسبب بحرمان الكثيرين منها.

لقد أمضيت أكثر من عقد من الزمن أعمل في سياق الأزمة السورية، بما في ذلك الذود عن حقوق الإنسان لدى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في نيويورك. ما زلت أتذكر بصيص الأمل الذي رافق بدايات عام 2011 عندما اتسعت رقعة المظاهرات الجريئة التي اندلعت شرارتها في درعا لتصل إلى جميع أرجاء البلاد. في آذار المقبل، سيصادف مرور 14 عامًا على رد الأسد على تلك الاحتجاجات السلمية بالدبابات والرصاص. اختار بشار - الذي ورث الحكم عن أباه - أن يحرق سوريا بالكامل بدلًا من أن يتخلى عن قبضته المميتة على السلطة.

"حسبُه أن يقضي بقية حياته في زنزانة في دمشق أو في لاهاي، وليس في شقة فارهة في موسكو"

في ذلك الوقت، وفي خضمّ عملنا مع المدافعين عن حقوق الإنسان السوريين ومنظمات أخرى غير حكومية في مدينة نيويورك، بذلنا قصارى جهدنا لكشف المستور في أزقّة وشوارع دمشق وحماة وغيرها من المناطق. ونتيجة لجهودي تلك، تعرضتّ للمعاملة المتعجرفة والمُتعالية من قبل بشار الجعفري، سفير سوريا حينها لدى الأمم المتحدة. لم تكن هناك بنظر الجعفري جريمة شنيعة بما يكفي أو أدلة دامغة توقفه عن اختلاق الأكاذيب لصالح الأسد. حتى الهجوم المروع بغاز السارين في آب 2013 على المدنيين في الغوطة، حيث قضى أكثر من 400 طفل من بين الضحايا، لم يهز ولاءه للأسد. بل إنه بلغ به الكذب بأن يتّهم بعض زملائنا العاملين سياق المنظمات الإنسانية بالإرهاب ويحمّل الضحايا مسؤولية الهجوم، مدّعيًا حسب قوله إنه ربما تم التضحية بهؤلاء المدنيين في محاولة لتشويه سمعة الحكومة!

فرّ الأسد إلى موسكو في 8 كانون الأول، تاركًا وراءه أولئك الذين ارتكبوا جرائم ضد الإنسانية في محاولاتٍ بائسة لإبقاءه في القصر الرئاسي. وفجأة، كمن أفاق من حلمٍ، يخرج علينا الجعفري في مقابلة ليدين ما قال عنها "المافيا الفاسدة" التي تُدير سوريا. نعم! إنها المافيا التي أفنى عمره وهو يدافع عنها عن فظائعها أمام مجلس الأمن الدولي والعالم حتى الرمق الأخير.

منذ الإطاحة بالأسد، قبل بضعة أسابيع، لم أتوقّف عن التفكير بالناشطين الشجعان و"الصحفيين المحليين"، وأفراد الخوذ البيضاء، وغيرهم ممن لم يُكتب لهم أن يشهدوا سوريا وهي تتنفس عبقَ الحريّة. فقدنا عددًا كبيرًا جدًا منهم، حيث لقوا حتفهم في الغارات الجوية الغاشمة أو اختفوا قسريًا في المعتقلات وباتت أسماؤهم همسًا في الرياح. لا أزال أتذكّر تلك اللحظة عندما جلست لإجراء مقابلة تلفزيونية في ليلة سقوط حلب في قبضة قوات الأسد في كانون الأول 2016، وإدراكي أن كل شخص أعرفه في تلك المدينة أصبح الآن إما هائمًا بلا مأوى أو قد ابتلعته الأرض أو قد فارق الحياة في حسرته.

في ذات اليوم الذي فرّ فيه الأسد، تكسّرت القيود في زنازين صيدنايا الصدئة على سندان إرادة السوريين وخضعت أبوابها للذين صدحت حناجرهم بنداء الحُريّة. ذاك السجن الذي وصفته منظمة العفو الدولية ذات مرة بأنه "مسلخ بشري". هرعتُ يومها لأرسل برسالة إلى نورا الجيزاوي، وهي ناشطة سورية في المنفى وصديقة من حمص، تعمل اليوم كعضو في مجلس إدارة مركز ضحايا التعذيب (CVT) ، بالكاد تمكّنا من استيعاب ما كان يحدث.

في مساء ذلك الأحد أيضًا تم تحرير الفرع 251 في دمشق حيث قال أحد الحراس للسجين حسين غرير ذات مرة: "سآخذك إلى ما وراء الشمس، حيث لن يعرف حتى الذباب مكانك". بالرغم أن جميع أطراف الحرب الأهلية المؤسفة في سوريا ارتكبت الكثير من الفظائع، إلا أن الأسد وحده كان له النصيب الأكبر في ارتكاب الفظائع على أوسع نطاق. وثق زملاؤنا في الشبكة السورية لحقوق الإنسان (SNHR) أنه بين آذار 2011 وكانون الأول 2024، قامت القوات الحكومية السورية بتعذيب 15,102 شخصًا حتى الموت، بينهم 190 طفلًا. وبذلك يظاهي بقسوته ووحشيته تنظيم داعش الإرهابي والمعروف بإجرامه غير منقطع النظير، ومع ذلك فلم يقم باحتجاز الأطفال وتعذيبهم بطريقة ممنهجة.

جنى، فتاة تبلغ من العمر 10 سنوات فقط، اختطفتها قوات الأسد من الشارع واحتجزتها في زنزانة تحت الأرض لثلاثة أسابيع في محاولة للضغط على والدها لتسليم نفسه. أثناء احتجازها، رأت جنى طفلاً آخر يُضرب حتى الموت وعانت من أهوال لا يمكن وصفها بالكلمات. أصبحت أسرتها لاجئة، وفي النهاية وصلت إلى مركزنا في عمّان - الأردن.

" جنى، فتاة تبلغ من العمر 10 سنوات فقط، اختطفتها قوات الأسد من الشارع واحتجزتها في زنزانة تحت الأرض لثلاثة أسابيع في محاولة للضغط على والدها لتسليم نفسه"

جنى ليست سوى واحدة من أكثر من 1,200 طفل سوري يعانون من الصدمات النفسية الذين لجأوا إلى مركز ضحايا التعذيب لتلقي خدمات الشفاء. ولكن منذ عام 2011، نزح أكثر من 13 مليون سوري من منازلهم، وفرّ 6.4 مليون إلى دول أخرى، مما يجعل الشعب السوري أكبر مجموعة من اللاجئين في العالم.

إن التقاعس في مجلس الأمن الدولي نتيجة للفيتوهات المتعددة من روسيا والصين، شجّع الأسد ومرتكبي الجرائم الآخرين في التمادي. ولم تكن تكلفة هذا الفشل الدولي مجرد مقابر جماعية وملايين اللاجئين، بل أدى ذلك أيضًا إلى حالة من الوهن العالمي تجاه حقوق الإنسان والقانون الدولي وتشويه في مبادئ مثل "مسؤولية الحماية". اليوم، يدفع المدنيون المستضعفون في ميانمار والسودان وأوكرانيا وغزة ثمن هذا الفشل.

"لكن لم يفت الأوان لتغيير مجرى التاريخ، فلا يزال الشعب السوري متعطشًا لإحقاق العدل"

ولحسن الحظ، فإن الكم الهائل من الأدلة التي جمعتها الشبكة السورية لحقوق الإنسان (SNHR) وغيرها من المنظمات، مثل الآلية الدولية المحايدة والمستقلة التي كلفتها الأمم المتحدة بشأن سوريا، يمثل رصيدًا هائلًا لتحقيق العدالة.

تُعتبر عملية تتبّع الجُناة وإجراء المحاكمات باهضة الثمن، فقد استمرت المحاكم الجنائية الدولية الخاصة بيوغوسلافيا ورواندا لسنوات وبلغت تكلفتها 2.2 مليار دولار و1.3 مليار دولار على التوالي. أما المحاكم الهجينة في سيراليون وكمبوديا فكانت أقل تكلفة، لكنها وصلت أيضًا إلى مئات الملايين من الدولارات. ومع ذلك، فإن تكلفة المساءلة أقل بكثير من تكلفة موسم آخر من الموت والاستبداد في منطقة الشرق الأوسط. إن النضال الذي نشهده لإنهاء ظاهرة الإفلات من العقاب هو جزء من معركة أوسع من أجل مستقبل سوريا، وهذه معركة لا يمكن للعالم تحمل خسارتها.

هاهو الأسد الآن متواجدٌ في موسكو تحت حماية الرئيس فلاديمير بوتين. لكن هناك تاريخ حافلٌ ومشين لتسليم الدكتاتوريين المنفيين ومجرمي الحرب الهاربين من قبل حلفائهم السابقين. فقد انتهت أيام تشارلز تايلور (ليبيريا) وسلوبودان ميلوسوفيتش (صربيا) وحسين حبري (تشاد) وهم الآن يقبعون في زنازينهم ومكبلين بالأصفاد. نرى مؤخرًا استماتة بوتين للحفاظ على القاعدة البحرية الروسية في طرطوس المشرفة على الساحل السوري. هل تستحق هذه القاعدة أكثر من منفى الأسد الفاخر بالنسبة له؟

لا يزال الحزن يعتصرني على جميع الزملاء والأصدقاء السوريين الملهمين الذين فقدناهم خلال العقد الماضي. يجب ألا نستكين حتى نرى الأسد وشركاءه في قفص الاتهام. ليس انتقامًا، بل لأن الحفاظ على حقوق الإنسان العالمية والسعي لتحقيق العدالة في مواجهة الفظائع هو السبيل الوحيد الذي يمكن من خلاله للولايات المتحدة والمجتمع الدولي بأسره أن يُكفّر عن عار تقاعسه المدفون تحت أنقاض سوريا.